٦ - دعوة محمد

توماس كارليل

تتمة البحث

للاستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

عظمة محمد :

إني لأحب محمداً — وليس في مقدور أي إنسان منصف امثاله إلا أن يحب هذا الرجل — وذلك لبراءة طبعه من الرياء والتصنع . فلقد كان محمد هذا رجلا مستقل الرأي ، لا يعول إلا على نفسه ولا يدعي ما ليس فيه ، لم يكن متكبراً ولكنه لم يكن خانعاً ذليلا ، فهو قائم في جلبابه المرقع كما أوجده ربه وكما أراد له أن يكون ، يخاطب بقوله الحر المبين ، أكاسرة الفرس وأباطرة الروم ، يدعوهم إلى ما فيه خيرهم وسعادتهم ، ويرشدهم إلى ما يجب عليهم في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى . وكان يعرف لنفسه قدرها ويضعها في موضعها اللائق بها . فلا يتقدم حيث يجب التأخر ، ولا يتأخر حيث يجب التقدم ، ولا يقسو حيث تستحب الرحمة ، ولا يرحم حيث تفيد الشدة ، ولقد وقعت بينه وبين الأعراب حروب متعددة ، لم تخل من مشاهد القسوة ، ولكنها مع ذلك لم تخل من دلائل الرحمة وسعة الصدر وكرم الغفران . ومع ذلك فقد كان لا يعتذر من الأولى ولا يفخر بالثانية ، فقد كان يراها من أوامر شعوره ووحي وجدانه . ولم يكن شعوره لديه بالظنين ولا وجدانه عنده بالتهم

وكان محمد وجلا ماضي العزم قوي الشكيمة لا يؤخر عمل اليوم إلى غده ، فقد حدث في غزوة تبوك أن امتنع المسلمون عن السير إلى ساحات القتال ، متذرعين بأن الوقت وقت الحصيد ، وبأن الحر شديد لافح ، فنظر إليهم نظرة نفذت إلى قلوبهم ثم قال لهم : الحصيد ؟ إنه لا يلبث إلا يوما أو يومين ، فـــاذا تتزودون لحصيد الآخرة ، وأما الحر فإنه نعم حر شديد ولكن جهنم أشد حرا ، فلماذا أنتم قائلون هناك

وقد كان في بعض الأحايين يخرج كلامه مسخرية لاذعة وتهكما مرا ؛ من ذلك قوله للكفار ، إنكم ستجزون يوم القيامة عن أعمالكم وأنه سيوزن لكم الجزاء ، ثم لا تبخسون عن أعمالكم مثقال ذرة

وما كان محمد عابثاً قط ولا شابت أقواله شائبة لهو أو لعب ، بل إنه كان ينظر إلى الأمور نظرة جد ثاقبة ، ممزوجة بالإخلاص الشديد والجد المر ، فلقد كان الأمر إما أمر فلاح وإما أمر خسران ، والحياة إما حياة بقاء أو حياة فناء . أما التلاعب بالأقوال والاستشهاد بالقضايا المنطقية والعبث بالحقائق ، فلم يكن من شأنه قط ولا عرف عنه شيء من هذا أبدا ، فإن ذلك التلاعب بالألفاظ والقضايا المنطقية ... عندي لمن أفظع الجرائم وأكبر الدلائل على كذب المرء وعبثه . إذ أن هذه الأشياء ليست إلا رقدة القلب ووسن العين عن الحق ، وبرهان على عبثة المرء في مظاهر كاذبة ، وليس يستنكر من إنسان يتخذ التلاعب بالألفاظ والقضايا المنطقية ، هو أن جميع أقواله وأفعاله أكاذيب وأضاليل ؛ بل إنه هو نفسه أكذوبة ، إنه إنسان كاذب ولكنه مصقول اللسان مهذب القول ، باق احتراما في بعض الأزمان وبعض الأمكنة ، لا تؤذيك بادرته ، لأنه لين الملمس رفيق المس ، لكنه كحمض الكربون تراه على لطفه سما نقيما وموتا ذريعا ، والأدهى من ذلك أن خصلة المروءة والشرف — شعاع الله في مخلوقاته — تجدها متضائلة في ذلك الإنسان كما أنه يكون مضطربا بين عوامل الحياة والموت

أما محمد ذلك الرجل العظيم فإنه من المحال أن يكون كهؤلاء الميتي القلوب الذين لا يعرفون الطريق إلى الله . إنه من المحال أن يكون كاذبا مثل هذا الرجل الكبير ؛ فإني أرى الصدق أساسه وأساس كل ما جاء به من فضل ومحمدة . وعندي أنه ما من أحد من الرجال الذين يسمونهم العظماء أمثال — نابليون أو بارنزا أو كرمويل أو ميرابو وغيرهم — ، ينال النجاح والفوز في عمل يقوم به إلا إذا كان الصدق والإخلاص وحب الخير أول بواعثه على محاولته فيما يحاول ، أي أن صدق النية والجد في الإخلاص ، بل أقول إن الإخلاص — الحر العميق الكبير — هو أول خواص الرجل العظيم وأهم صفاته . وأنا إذا قلت الرجل العظيم ، لا أريد

به ذلك الرجل الذى لا يبى بفتخر أمام الناس باخلاصه ، كلا فإن ذلك الرجل ليس عظيما بل هو حقير جدا ، وإخلاصه إخلاص سطحى لا يقصد به نفع الآخرين ، إنما يبتغى به منفعة نفسه ، وهذا الإخلاص فى الغالب ، إنما هو غرور وفتنة

أما إخلاص محمد ذلك الرجل العظيم ، فقد كان لا يتحدث عنه ولا يفتخر به ، بل ربما كان فى بعض الأحيان يشعر من نفسه بعدم الإخلاص إذا كان يرى غيره لا يستطيع أن يلتزم منهج الإخلاص يوما واحداً فكان يلجأ إلى ربه الذى لا ملجأ منه إلا إليه يطلب منه أن يرزقه الإخلاص

* * *

لقد كان إخلاص محمد غير متوقف على إرادته ، فهو مخلص على الرغم من نفسه سواء أراد أم لم يرد ، وكيف لا يكون مخلصاً إخلاصاً حقيقيا ، وهو يرى الوجود حقيقة كبرى تروعه وتهوله ، ولا يستطيع أن يغمض عينيه عن جلالها الباهر ، وهو يرى الكون مدهشاً ومخيفاً وحقا كالموت وحقا كالحياة ، وهذه هى الحقيقة التى لم تفارقه أبداً وإن فارقت أكثر الناس ، فساروا على غير هدى ، وخبطوا فى دياجير الظلام وغياهب الغواية والضلال ، وهكذا خلق الله محمداً ذا عقل راجح ونظر ثاقب ، وإخلاص فى غير تفاخر ، وهذه هى أهم أسباب العظمة

كانت الحقيقة الكبرى ماثلة دائماً نصب عينيه ، حاضرة أبداً فى ذهنه كأنها منقوشة بحروف من اللهب ، وهذه هى أولى صفات العظيم ، وبها يمتاز ويعرف . وهى ما امتاز بها محمد ، ولا أنكر أنها قد تكون موجودة فى الرجل الصغير ، لأن كل إنسان خلقه الله جدير أن توجد صفة الإخلاص فى نفسه ، ولكنها قد تكون وقد لا تكون . أما الرجل العظيم فإنها من لوازمه ؟ بل إن الرجل العظيم لا يكون عظيما إلا بها ، وإنى أرى أن من أسباب عظمة محمد أنه كان نافذ النظر إلى لباب الحقيقة ، يمتاز بنفس شاعرية كبيرة ، وآيات تدل على أكرم الخصال وأشرف المحامد ، وإنى كلما قرأت عنه تبين لى فيه عقل راجع وفؤاد صادق وعين بصيرة ، ورجل عبقرى لو أنه أراد أن يكون شاعراً لكان من فحول الشعراء ، ولو شاء أن يكون فارساً لكان من أشد الفرسان شكيمة ، ولو ابتغى ملكا لكان ملكا جليلا مهيباً ، ولو أحب أن يكون أى شىء من كل هذا لكانه بغير أن يكلفه أى مشقة أو عناء

وأى دليل على عظمته وصدق نبوته أقوى من نظرته إلى الكون ، فلقد كان العالم فى نظره معجزة كبرى تدل على خالق الكون العظيم . كان ينظر إلى الكون فيرى فيه غير ما كان يراه أعاظم المفكرين من الذين كانوا يقولون إن العالم فى الحقيقة لا شئ . أما محمد فقد كان يرى العالم آية منظورة ملموسة على وجود الله ، بل إنه ظل الله علقه على صدر الفضاء ، وكان يقول : إن هذه الجبال ، هى أوتاد الأرض ، وهى رغم عظمتها وشموخها ستذوب وتصير كالعهن المنفوش فى يوم القيامة (يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش) فى يوم القيامة ستتصدع الأرض وتتفتت وتذهب فى الفضاء هباء منثورا

وكان سلطان الله وعظمته لا يزال واضحا امينه على كل شئ ، وأن كل مكان مملوء بقوة مجهولة وروئق باهر وهول عظيم ، إن هذا الكون هو الحقيقة الصادقة ، والجوهر القوى ، هكذا كان محمد ينظر فى الكون ، وهذا ما يسميه علماء العصر الحديث القوى والمادة . ولكنهم لا يرونه شيئا مقدسا ، بل إنهم لا يرونه واحدا ، بل أشياء متعددة تباع وتشترى بالدرهم والدينار ، وتستخدم فى أغراض الناس وإصلاح حالهم أو إفساده ، فهم لا ينظرون إليها على أنها سر من أسرار الله فى الكون

إن العلوم الحديثة من كيماويات وحسابيات ، قد أنستنا ما يكمن فى الكائنات من سر إلهى وعظمة تدل على الخالق القوى القدير . فما أخشى ذلك النسيان طرا وما أشد هذه الغفلة إنما ، فإذا نسينا قوى الله فى العالم فأى الأمور يستحق أن يذكر ، إن العالم اليوم يسير فى مجاهل الغرور والضلال ، وصار الناس يفتخرون بما بلغوا من علوم ومخترعات ، ولو كان لهم نظرات صادقة لرأوا أن معظم علومهم أشياء ميتة بالية ، وأن مخترعاتهم بقلة ذابلة ، وأن هذه العلوم التى يفتخرون بها لولا سر الله لما كانت إلا خشبا يابسا ميتا ، ليست بالشجرة النامية التى تعطى الثمر اللذيذ المفيد ، ولا بالغابة الكثيفة الملتفة التى لا تبرح تعطينا الخشب الذى نستفيد به ، ووالله لن يجد المرء — إذا ابتعد عن طريق الله — السبيل إلى العلم إلا هشقشقة كاذبة ، وبقلة كما قلت ذابلة

محمد رسول الله :

مثل هذا الرجل هو ما نسميه رجلا أصيلا كريم العنصر صافي الجوهر ، وهو رسول مبعوث من لدن القوة العلية أرسلته إلينا برسالة قدسية فيها الهدى والبصيرة ، وقد نحار في تسميته فنسميه شاعرا أو نبيا أو إلها ... وسواء كان هذا أو ذاك ، فالذي يجب أن نعلمه أن ما جاء به هو من عند الله ، وأن قوله ليس مأخوذا من رجل غيره ؛ وإنما هو صادر عن الأبدية السرمدية وأنه من لباب الحقائق

ولن أكون مغاليا إذا قلت إن مثل هذا الرجل يرى باطن كل شيء لا يحجب عنه ذلك اصطلاحات كاذبة ولا اعتبارات باطلة ولا معتقدات وعادات سخيفة، فقد نزه نفسه عن النظر إلى هذه الأشياء كلها . وكيف ينظر إنسان إلى هذه السخافات وهو يرى الحقيقة تسطع أمام عينيه قوية باهرة حتى ليكاد نورها يعشي عينيه ، وفي رأيي أن محمدا مخلوق عظيم من فؤاد الكون وأحشاء الدنيا وأنه جزء من الحقائق الجوهرية ، وقد دل الله على أنه رسوله إلى هذا العالم بعدة آيات ، أهمها أنه علمه العلم والحكمة وأمره أن يدعو الناس إليهما ثم أوجب علينا الإصغاء إليه قبل كل شيء ، لأن الرسالة التي بعث بها هي الحق الصراح ، وليست كلماته إلا أصواتا صادقة صادرة من مصدر أعلى لا ندركه نحن ، فإذا عرفنا هذا استحال علينا أن نعد محمدا هذا أبدا رجلا كاذبا أفاقا يتصنع الحيل ويتذرع بالوسائل طمعا في ملك أو سلطان أو غير ذلك من صغائر الأمور وحقائر الأشياء . كلا ليس محمد بالكاذب ولا الملفق ، وإنما هو قطعة من الحياة الأبدية قد تفتح عنها قلب الطبيعة ، وإنما هو قبس من النور المقدس يشع من الأبدية فإذا هو شهاب قد أضاء سماء العالم أجمع (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) وهذه حقيقة تدفع كل باطل وتدفع حجة الدجالين وتدحض افتراء الكاذبين المفترين

* * *

إن قوما قد اعترفوا بنبوة محمد ولكنهم قالوا إنه وقع في بعض الأخطاء وليس في مقدور أي إنسان أن يثبت على محمد هفوات وأخطاء تذري بتلك الحقيقة الكبرى الظاهرة لكل عين بصيرة . وهي أن محمدا رجل صادق ونبي مرسل من رب العالمين. ولا نكلف أنفسنا شططا فنجسم الهفوات ونجعل من الجزيئيات حجبا تحجب عنا نور الحقيقة الباهرة

إن أخطر الذنوب وأكبر الآثام ليهون أمرها إذا كان لباب النفس حرا كريما وسرها شريفا ، إذ أنها لابد تائبة عما ارتكبت، وفي التوبة النصوح والندم الصادق ولذع الذاكرة ووخز الضمير المكفر الأكبر للسيئات ، والمطهر للروح من أدران الشوائب والموبقات . إن التوبة الصادقة في نظري أكرم أعمال المرء جميعها وأقدس أفعاله كلها

أما إذا حسب المرء نفسه بريئا من كل ذنب ، بعيدا عن كل خطأ، فإنه يكون في نظري خاليا من الوفاء والمروءة ، بعيدا عن الحق والخير، وإن نفسه لتكون ميتة — وإن شئت فقل إن نفسه تكون نقية نقاء الرمل الجاف

والذي يعرف سيرة نبي الله داود وتاريخه كما هو مدون في مزاميره ، يرى أنه أكبر دليل وأصدق شاهد على ارتقاء النفس البشرية في مدارج الكرمات ، وأن الحرب بين العقل والهوى إن هي إلا حرب طالما ينهزم فيها العقل هزيمة تضعضع جانبه وتتركه على شفا الانقراض وحافة الزوال . ولكنها حرب تكون مشفوعة دائما بالتوبة والندم ، إنها حرب تستنهض العزم الصادق وتجدد قوى الإيمان بوجوب انتصار العقل وهزيمة الهوى ، هذا إذا كان جوهر النفس نقيا ولبابها حرا ، فإن الخير فيها سينتصر على الشر لا محالة

يا ويل النفس الإنسانية بين ضعفها وقوة شهواتها ، وما أشد خطبها بين قوى الخير والشر ، أليست حياة الإنسان سلسلة من العثرات ؟ وهل في مقدور الإنسان أن يتفادى كل العثرات وينجو منها . إن المرء لا ينهض من عثرة إلا إلى أخرى . وبين هذه وتلك عبرات وتحيب وبكاء وشهيق وزفرات ونشيج . فإن استطاع بعد طول المجاهدة أن يغلب على هواه كان ذلك فوزا عظيما ، وكان دليلا على أن لباب نفسه حقا وجوهرها صحيحا . وفي هذه الحالة يمكننا أن نتجاوز عن الحزبيات ، لأنها وحدها لا تستطيع أن تجلو لنا الحقيقة وتعرفنا معدن النفس

إن حياة المرء العادية هي التي تكشف لنا عن جوهر نفسه وخير معدنه ؛ لأنه سيكون فيها سائرا على سجيته بغير كلفة ولا تصنع

ونحن إذا تتبعنا محمدا في حياته اليومية خرجنا بما يثبت صحة ما نقول ، من أنه مبعوث الأبدية ورسول العناية القدسية

فقد كان محمد صوت فؤاد يهيم بين الرجاء والخوف ، الرجاء والأمل في سعة رحمة ربه .. والخوف من ارتكاب الذنوب وهول يوم الحساب رغم أنه كان متدينا شديد التمسك بدينه .. موعودا من ربه بالمثوبة وحسن الجزاء . وقد تروى عنه مكرمات عالية وتذكر له صفات هي في الذروة من الصفات الإنسانية ، فعندما مات ابنه إبراهيم قال : إن العين لتدمع والقلب ليوجع والنفس لتجزع ولا نقول ما يغضب الله .. ولما استشهد مولاه زيد بن حارثة في غزوة (مؤتة) قال محمد : لقد جاهد زيد في الله حق جهاده ، وقد لقي الآن ربه خالصا فلا بأس عليه . غير أن ابنة زيد رأت محمدا بعد ذلك يبكي على جثة أبيها ، رأت الرجل الذي دب الشيب في مفرقيه تسيل عيناه دما ويذوب قلبه حزنا ، فنظرت إليه متعجبة ، ثم قالت : ماذا أرى ؟ فقال لها : صديقا يبكي صديقه .

إن مثل هذه الأقوال وهاتيك الأفعال لتوضح لنا شخصية محمد وترينا أنه كان أخا الإنسانية الرحيم الذي بعثه الله رحمة للعالمين ، إن مثل هذه الصفات التي امتاز بها محمد والأحكام التي جاء بها القرآن والتعاليم التي اختص بها الإسلام ، كل هذه جميعا هي التي أخرجت العرب من الظلمات إلى النور ، وأحيت بهم أمة كانت همجا بين الأمم ، فجعلتها تملك زمام العالم تقوده إلى بر الأمان

وهل كان العرب إلا فئة من الرعاة الجوالين خاملة فقيرة تجوب الفلاة منذ أن خلق الله العالم ، لا يسمع لها صوت ولا تحس لها حركة ولا يقام لها وزن

فلما جاءهم محمد من عند الله وبرسالة من قبله ، بدل أمرهم فإذا الضعة قد استحالت رفعة ومجدا ، والخمول شهرة والضعف قوة ، وإذا الظلام نور شع سناه في جميع الأنحاء وعم نوره الأرجاء ، ووصل شعاعه الشمال بالجنوب والشرق بالغرب ، ولم يمض غير قرن من الزمان على بعثة محمد حتى بلغ العرب الذروة في المجد ، وأصبح لهم رجل في الهند ورجل في الأندلس ، وأضاء نور الإسلام دهورا عديدة نصف الكرة الأرضية ، وتمتع الرعايا الذين كانوا تحت حكم الإسلام بفضل الإسلام ورونق الحق ونبل المسلمين ومروءتهم وشجاعتهم وبأسهم ونجدتهم ، وهدى الله الكثير منهم فشرح صدورهم للإسلام فدخلوا فيه طائعين مختارين بعد أن عاشروا أهله ورأوا ما في الإسلام من تعاليم تكفل العدل وحسن الحياة لكل أفراد الرعية ، وهذا حال الحكم الإسلامي ما دام الإيمان القوي — الذي هو مبعث الحياة ومنبع القوة — يملأ نفوس المسلمين ويرسم لهم مناهج الحكم وسبل الحياة

إن في استطاعة المسلمين في أي عصر من العصور أن يصلوا إلى أرقى مدارج الفضل وأن يبلغوا ذرى المجد إذا اتخذوا اليقين مذهبهم والإيمان الصحيح منهجهم ، وما دام الإسلام وتعاليمه دائم . فالإسلام نور ونار ، نور يهدي إلى الحق وإلى الطريق المستقيم (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم) ونار تحرق كل شوائب النفوس وأوزارها فتصفي معدنها وتحمي ميتها

ألستم ترون في حالة محمد مع أولئك الأعراب الوثنيين عندما جاءهم بدعوته ، كأنما وقعت من السماء شرارة على تلك الفيافي الواسعة التي لا يرعى فيها خير ويبصر بها فضل ، فإذا هي بانفجار سريع قوي يبدل حالها ويضيء ظلامها ويحمي موتاها ، وإذا الرمال الميتة قد تأججت واشتعلت واتصلت نارها بين فرناطة ودلهي ، وهذا أكبر دليل على صدق محمد وعظمته ، ولطالما قلت إن محمدا شهاب أرسلته السماء وكان الناس جميعا في انتظاره كأنهم حطب يابس ، فما هو إلا أن سقط عليهم حتى